

اللطائف الفنية في التحليل النحوي والصوتي للآيات القرآنية (سورة العلق أنموذجاً)

Artistic Witticisms in the Qur'anic Verses: Syntactic and Phonetic Analysis of Surah Al-Alaq the Clot.

د. علي زعل محمود الخمايسة *

قسم اللغة العربية، جامعة الإسراء - الأردن

Dr.alizaal@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/10/28 تاريخ القبول: 2020/01/21 تاريخ النشر: 2020/03/30

ملخص البحث:

Abstract:

This study attempts to reveal the hidden artistic witticisms in Surah Al-Alaq (The Clot) phonetically and syntactically. It also explores the esthetical aspects in the Qur'an as seen by the great Arab grammarians Abdul Qadir Al-Jorgani and Al-Zamakhshari. The aim is to apply this analysis syntactically and phonetically on Surah Al-Alaq, depending on earlier phonetic and syntactic studies that formed an independent vision for linguists in the service of the Holy Qur'an. Thus, in this research, we have studied the effects of the sound system (rhythm, tone, and sound convenience) which makes the reciting of Surah Al-alaq, and the Qur'an, a distinguished experience.

يسعى هذا البحث لغاية مفادها كشف خفايا اللطائف الفنية في التحليل النحوي والصوتي لسورة العلق، والوقوف على المواطن الجمالية في القرآن الكريم، من خلال مواقف كبار النحاة العرب، وأهمهم: عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري؛ وذلك لتطبيق التحليل على المستوى النحوي، والصوتي لسورة العلق، من خلال الاستعانة بالدراسات، والأبحاث الصوتية والنحوية التي شكلت رؤيةً مستقلةً من علوم اللغة، تهدف لخدمة القرآن الكريم، وتسهم في الكشف عن ميل النفوس إلى كتاب الله - سبحانه وتعالى- وهكذا بحثنا في أثر النظام الصوتي في سورة العلق؛ تبيناً للجرس والنغمة والتلاؤم الصوتي التي يلتدُّ بها القارئ للقرآن الكريم.

Keywords: phonetically; syntactically; the Qur'an

الكلمات المفتاحية: النحو؛ الصوتيات؛ القرآن الكريم.

* المؤلف المراسل: علي زعل محمود الخمايسة: Dr.alizaal@gmail.com

مقدمة:

تطبيق مصطلحات وتبianaها وأهمها: (الثبوت القطعي، الاستغراق، الإطلاق، التجدد النحوي، الاستمرار النحوي، الديمومة النحوية)، ولا بُدَّ من تأكيد هذه المصطلحات من خلال الدرس الصوتي وتقديمه للمفاهيم التالية: (المقاطع الصوتية، علاقة الصوت بالمضمون، مقاطع الانتباه).

أسئلة البحث :

سيجيب البحث عن الأسئلة الآتية:

1. ما أهم القضايا النحوية والصوتية الواردة في سورة العلق؟
 2. ما العلاقة بين القضايا النحوية بالجانب الدلالي الإعجازي القرآني؟
 3. ما العلاقة بين القضايا الصوتية والجانب الدلالي القرآني؟
 4. كيفية تحليل سورة العلق بأسلوب جديد يربط بين النحو، والدلالة، والصوت؟
- أهداف البحث :

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

أولاً- الكشف عن مجموعة من المصطلحات الصوتية والنحوية في سورة العلق وأهم هذه المصطلحات هو: (الثبوت القطعي، الاستغراق، الإطلاق، التجدد النحوي، الاستمرار النحوي، الديمومة النحوية، المقاطع الصوتية علاقة الصوت بالمضمون، مقاطع الانتباه).

ثانياً- إجراء تطبيق نحوي وصوتي على سورة العلق للتبيان لتحديد أهم ملامح البلاغة القرآنية والإعجازية.

الدراسات السابقة :

وقف الباحث على مجموعة من الدراسات السابقة ذات العلاقة المباشرة بهذا البحث ولعل أهم تلك الدراسات:

إنَّ لغة القرآن الكريم تمثل النموذج الأعلى في خطاب الله تعالى للبشر، والأسلوب الأفضل الذي يُحتج بدلالته، وعذوبته فلا بُدَّ من تكريس الجهد للبحث وصولاً إلى فهمٍ أعمق لكتاب الله من خلال استعمال الأدوات النحوية والصوتية، وتطبيقها من أجل الوصول لنموذج جديدٍ من التحليلات الصوتية والنحوية، ولتقديم موضوعات وأجزاء سور كتاب الله بما لا يدع مجالاً للشك في الإعجاز: البياني، والبلاغي، والنحوي، والصوتي.

وأما أهم القضايا النحوية التي يعرض لها هذا البحث فهي قضية الثبوت القطعي الذي يعمق إدراك الباحث للمضامين القرآنية، وقضية الاستغراق، والإطلاق الذي يظهر من خلال استخدام (المعرّف بأل)، وقضية تحقّق الفعل من خلال أسلوب الفعل الماضي، وقضية التجدد والاستمرار من خلال استعمال الفعل المضارع، وقضية الديمومة الأبدية من خلال التوكيد النحوي الذي يبيّن المضمون النحوي، وقضية العلاقة بين لام الابتداء ونون التوكيد، ويتعرض البحث لإعراب كثيرٍ من المواضع في سورة العلق.

وتوجد موضوعات صوتية تحتاج لمزيد من البحث في سورة العلق أهمها: أنواع المقاطع الصوتية من حيث الطول، والقصر، وعلاقة الصوت بالمضمون القرآني، ومقاطع الانتباه والالتفات ولاسيما المتغافل عنها، وعلاقة الفاصلة القرآنية بالجانب الصوتي، وتبيان المقاطع الصوتية: المفتوحة، والمضمومة، والمكسورة، وعلاقتها بالمعنى الدلالي.

مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في تبيان أهميّة العلاقة بين القضايا النحوية، والجوانب الأسلوبية من خلال

انسجام جرس الحرف، أو صفته مع الدلالة، وأثر ذلك في الإيحاء بالمعنى.

منهج البحث :

اعتمد الباحث المنهج الوصفي في المستويين النحوي والصوتي من خلال التطبيق التحليلي على سورة العلق، وأفاد الباحث من الدراسات الوصفية القديمة والحديثة للوصول إلى النتائج العلمية المرجوة.

اللطائف الفنية في التحليل النحوي والصوتي للآيات القرآنية (سورة العلق أنموذجًا)

من المعروف أنّ النحو هو العلم الذي يعرف به المتكلم أحوال آخر الكلم في اللغة العربية، وبه يتمكّن المرء من إقامة كلامه على سَمْت العربية، ويضبط أواخره بالحركات المناسبة التي تقتضيهما مواقع الكلمات في الجملة التي يتحدث بها، سواء أكانت تَلْفُظًا منطوقًا، أم كانت كلامًا مكتوبًا.

ومما لا شكّ فيه أنّ هذه أبرز ثمار علم النحو التي يجنيها المرء من تعلّمه، ولا نحيد عن الصواب إن قلنا إنّها الغاية التي قصدها النحاة العرب الأوائل، كأبي الأسود الدؤلي، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ويونس بن حبيب، والفراهيدي من تأسيس علم النحو.

لكنّ الذي يغيب عن الأذهان عند بعض الأشخاص أنّ النحو له فائدة في كشف خفايا النصّ الأدبيّ، والوقوف على بعض مواطن جماله، وبراعة المتكلم في صياغة عباراته، ودقّة استخدام مفرداته؛ إذ إنّه أصبح مدخلا يلج منه الباحث لإظهار معالم النصّ الخفية، وبيان ما فيه من لطائف بيانية، ونكت بلاغية، وهذه لعمر ك فائدة عظيمة تصقل أذواق النقاد، وتشجذ مواهبهم في دراسة النصّ الأدبيّ؛ بما يقدمه علم النحو من أدوات، ومعارف

أولاً- كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني الذي حققه الدكتور محمود محمد شاكر وهو كتاب صادر عن مكتبة الخانجي في سنة 1989م، وعاین هذا الكتاب جوانب النظم وهو: وضع الكلام الذي يقتضيه علم النحو وفق قوانين وأصول، وتعرف منهجها التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسم التي رسمت فلا تخل بشيء منها.

ثانياً - كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري الذي حققه علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وطبع في مطبعة صدّيق موسى الذي يشير إلى أنّ العين تألّف الحسن في الذوق، والألوان في النظر، والأنف يرتاح للطيب وينفر للمنتن، والفم يتلذذ بالحلو ويمجّ المرّ، والسمع يتشوّق للصواب الرائع، ويزوي عن الجهير الهائل.

ثالثاً- كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي الذي شرحه وصححه عبد المتعال الصعيدي، ونشر في مطبعة محمد علي صبيح في سنة 1969م، ويشير إلى أنّ الأصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر.

رابعاً- كتاب سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني الأزدي الذي تم تحقيق من خلال لجنة للتحقيق شارك فيها مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف، وإبراهيم مصطفى، وعبد الله الأمين وذلك في دار إحياء التراث العربي في مصر سنة 1954، وعاین هذا الكتاب تشكيل الحروف المتقاربة لضعف الحرف نفسه وهو يلي الأول في الحسن وتأليف الحروف المتباعدة، وهو أحسنه، وهو الأغلب في كلام العرب.

خامساً- كتاب النشر في القراءات العشر، لأبي محمد الدمشقي ابن الجزري، الذي حققه محمد أحمد دهان حيث طبع سنة 1926م، إذ يشير إلى أنّ

أي القرآن الكريم في مؤلفه المشهور في التفسير (الكشاف)، وقد أبدع أيما إبداع في تفسير آيات القرآن باستخدام التحليل النحوي العميق لها، كيف لا يصل إلى ذلك، وهو يدرس أي القرآن العظيم، الذي يمثل كمال الصياغة، وتمام البلاغة، وبه تحدى الله البشر أن يأتوا، ولو بسورةٍ من مثله.

واللافت للنظر أيضاً أن مناهج نقدية حديثة ظهرت في القرن العشرين عند الغرب تستند إلى النحو في دراسة النص الأدبي، مثل البنيوية والأسلوبية ونحو النص، الأمر الذي يبين بجلاء الفائدة العظيمة التي يجنيها المرء من هذا العلم عند اكتسابه، وفي الوقت نفسه يُثير في نفوسنا تساؤلاً لم لا يوظف هذا المنهج في تدريس النحو وتعليمه للطلبة، بدلاً من تقديمه في متون جافة وقواعد جامدة يسأم منها الدارسون، لا سيما إن كانوا طلبة صغاراً، لم يبلغوا مبلغاً في اكتساب العلم؟.

وستكون المحاولة في السطور اللاحقة دراسةً تحليلية على المستوى النحوي، والصوتي لسورة العلق من الذكر الحكيم نحاول فيها الوقوف على اللطائف البيانية، والخفايا البلاغية التي تتكشف للدارس من التحليل، وعسى أن نكون موقفين في الجهد الذي بذلناه، والله من وراء القصد عليه التوكل ومنه التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

1. اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
2. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ
3. اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ
4. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
5. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ
6. كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى
7. أَنْ رَأَاهُ اسْتَغَى
8. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى

تمكّنهم من بيان اللطائف الخفية في النص الأدبي، وأيضاً تدرب القراء على كيفية فهم النص الأدبي فهماً عميقاً يتجاوز الإدراك المباشر لبنيته السطحية. وإن غياب هذه الفائدة لعلم النحو عن أذهان بعض الأشخاص يحرمهم من الانتفاع الكامل، فأحد المعاني المغلوطة عن النحو أنه - فقط - يمكن الطلبة من إعراب الكلام، وضبط أواخره بالحركات المناسبة، ليس غير ذلك، وهم بهذا غفلوا - أو لم يغفلوا- أنه يحمل منهجاً لتحليل النص الأدبي، وإعادة قراءته، والوقوف على العمليات العقلية التي أتبعها ذهن المتكلم في عقله الباطن (اللاوعي) إبان نظم الكلام إن كان شعراً، أو رصف الألفاظ، وصياغة العبارات إن كان نثراً.

واللافت للنظر، والجدير بالذكر أن هذه الثمرة المجنية من دراسة النحو قد التفت إليها النحاة العرب، والبلاغيون، وبعض علماء التفسير في مؤلفاتهم، فهذا عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، صاحب نظرية النظم، يصرح في مؤلفه (دلائل الإعجاز) الذي يمثل تفاعل علمي النحو والبلاغة: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها"⁽¹⁾، وهذا النهج عند أتباعه يقتضي من المتكلم إن أراد نظماً بليغاً في الكلام، وبيانياً ربيعاً يبهر العقول ويأسر النفوس عليه أن يلتفت للنحو، ويتوحن المعاني الناجمة عن تطبيق قواعده وأقيسته، وقد طبّق عبد القاهر منهجه هذا المتمثل بنظرية النظم على نماذج من القرآن الكريم والشعر العربي في كتابه المذكور، ولا يتسع المقام هنا لحديث أطول عن ذلك.

والمنهج نفسه في تطبيق نظرية النظم سار عليه عالم التفسير الزمخشري (ت538هـ) في تفسير

(الذي) يدلُّ على الخصوص، وإعرابه في محل جر نعت لِرَبِّكَ)، وتناسب هذا مع مضمون الآية بأنَّ الله تعالى الخالق للكون وللوجود كلّه، لذا أمر الله نبيّه بالقراءة باسمه تعالى.

الجملة الفعلية (خلق) في هذه الآية الكريمة صلة الموصول، وهنا قد يتبادر إلى الذهن لِمَ اختير الفعل (خلق) دون غيره، علماً بأنَّ الله تعالى أفعاله غير قابلة للحصر أو العدِّ في الكون، كالرحمة والعلم والسخط ... إلخ، لكن اختير هذا الفعل؛ لأنَّه خاصٌّ بالله تعالى، ولا يشاركه فيه أحدٌ سواه، لذا وصفته الآية به سبحانه وتعالى، فحتى في استخداماتنا اللغوية في الحياة، ننتع المرء بشيء اختصَّ به دون الآخرين، مثلاً إذا لم ينجح إلا فلان، فإننا نقول عنه: فلان الذي نجح، لذا دلَّت الآية أنَّه - سبحانه وتعالى- الذي حصل منه الخلق، واستأثر به، لا خالق غيره، وأيضاً أنَّه خلق كلَّ شيء.

"باسم ربِّك" الباء هنا تفيد الاستعانة؛ أي إنَّ قراءة العبد لما أنزله الله تعالى وخلق، لا يكون إلا بعونٍ من الله، وبقدرة منه وهما الإنسان، بناءً على ذلك تكون شبه الجملة في محل نصب حال، للفاعل الضمير المستتر المخاطب في قوله (اقرأ).

الآية الثانية (2): "خلق الإنسان من علق" خصَّ الإنسان بالذكر؛ لأنَّ التنزيل إليه، وهو أشرف ما على الأرض، والمكلف بوظيفة الاستخلاف، ويُلاحَظ في هذه الآية استخدام صيغة الماضي للفعل (خلق) للدلالة على ثبوت تحقُّق الفعل، والمفعول به (الإنسان) عُرِفَ ب(أل)؛ للدلالة على الجنس العام لهذا المخلوق، وليس على فرد بعينه، علماً بأنَّ التعريف يفيد التحديد والتعيين، لكن في هذه الآية لو نُكِّرت كلمة (الإنسان) لدلَّت على عكس مضمون الآية، فلو كانت الآية (خلق إنساناً من علق)، عنَّت

9. أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى

10. عَبْدًا إِذَا صَلَّى

11. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى

12. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى

13. أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى

14. أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى

15. كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ

16. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ

17. فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ

18. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ

19. كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ

التحليل النحوي لآيات السورة الكريمة:

الآية الأولى(1): "اقرأ باسم ربك الذي خلق"

الفعل (اقرأ) في الآية الأولى وأيضاً في الآية الثالثة، لم يُذكر المفعول به للفعل؛ لدلالة السياق عليه؛ أي اقرأ ما أنزل إليك، وأيضاً؛ لأنَّ كلَّ ما أنزله الله تعالى، وخلقته قابلاً للقراءة والتدبر، فيدرك العبد القارئ من ذلك عظمته -جلَّ وعلا- وإتقانه في خلقه، وهو غير قابل للحصر والتحديد، لذا كان عدم الذكر دالاً عليه، ومنسجماً مع مضمون الآية، وهذا (الحذف، وعدم الذكر) وسيلة من الوسائل البلاغية التي يوفرها النظام النحوي في اللغة العربية، ولأهميته فقد أفرد له عبد القاهر الجرجاني باباً في كتابه، قال فيه: "هو - أي الحذف - هو بابٌ دقيق المسلك، عجيب الأمر، فإنَّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تنطق"(2).

ويُلاحَظُ أيضاً في الآية الأولى أنَّ المفعول به للفعل (خلق) قد حُذِفَ؛ لأنَّ خلقه سبحانه وتعالى أكثر من أن يُعدَّ أو يُحصَى، فدلَّ هذا الحذف على العموم والإطلاق، والاسم الموصول في هذه الآية

ب - أن يكون مضافاً إلى نكرة، وفي هذه الصورة تكون سعة الأفضليّة أكبر ممّا تكون في الصورة السابقة، نحو: المتنبّي أعظمُ شاعرٍ في العصر العباسيّ.

ت - أن يكون مضافاً إلى معرفة، وهذه الصورة تزداد فيها سعة الأفضليّة على الصورتين السابقتين، نحو: المتنبّي أعظم الشعراء في العصر العباسيّ.

ث - أمّا الصورة الأخيرة فهي التي تظهر فيها الأفضليّة في أعلى مستوياتها، وتفيد عموم التفضيل وإطلاقه، وأنّ المفضّل لا يدانيه أحد في صفته، كما يبدو في الآية الكريمة.

"عَلَّمَ بالقلم" حرف الجر الباء في هذه الآية يفيد الاستعانة، والقلم تعني الخط والكتابة، انسجم مضمون هذه الآية مع الآية التي سبقتها، إذ دلّت على كمال كرمه سبحانه وتعالى، بأنّ علّم الإنسان الخطّ والكتابة، ووهبه القدرة عليها، ولولا ذلك لم يقم للبشرية دين، ولم يصلح لهم عيش، فبالكتابة دوّنت العلوم، وأخبار السابقين، والأحكام والشرائع التي تنظّم العيش والمعاملات، وفي هذا المعنى الذي حملته الآية تحذيرٌ للإنسان من العجب بنفسه، والغرور بما اكتسبه من علم ومعرفة.

يُلاحَظُ في هذه الآية، والآية التي تلتها أنّ الفعل (علّم) جاء في صيغة الماضي - عندما كان مصدر التعليم من الله تعالى - للدلالة على تحقّق الفعل، بما لا يترك مجالاً للشكّ في نفس الإنسان الذي يمتلكه الغرور، و يُلاحَظُ في الوقت نفسه أنّ هذا الفعل (علّم) فعل ثلاثيّ مزيد بالتضعيف، والزيادة هنا تفيد التعدية، تعدية الفعل من متعدٍّ لمفعول به واحد إلى متعدٍّ لمفعولين، فالإنسان علم ما علمه، الفعل (علم) متعدٍّ إلى مفعول به واحد، وعند التضعيف يتحوّل الفاعل (الإنسان) إلى مفعول به، كما في (علّم

بذلك إنساناً معيّنًا محدّدًا، ولكنه مجهول الاسم أو الهوية، أمّا التعريف (الإنسان) فكان فيه دلالة على العموم، وأنّ المقصود في الآية الإنسان بوصفه نوعاً أو جنساً من المخلوقات، وليس فرداً.

(من) في هذه الآية حرف جر، يفيد بيان النوع أو الجنس، ومجرورها (علق) جاء مؤنثاً - علماً بأنّه في آيات أخرى من القرآن الكريم قد جاء مؤنثاً أيضاً ولكن بصيغة (علقة).

الآيات (3)، (4)، (5): "اقرأ وربك الأكرم" "الذي علّم بالقلم" "علّم الإنسان ما لم يعلم".

كلمة (الأكرم) عند تأملنا لموقعها الإعرابي نجدها خبر للمبتدأ (ربك)، أي أنّ (وربك الأكرم) جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت القطعيّ، وهذا من شأنه أن يعمّق إدراك الإنسان بمضمون الآية، ويزيد يقينه بها، ويُلاحَظُ أنّ الآية في إخبارها عن كرم الله تعالى استخدمت صيغة اسم التفضيل (الأكرم)، ولم تستخدم الصفة المشبهة (كريم) - على الرغم من أنّها تدلّ على الدوام والثبات - أو اسم الفاعل (المُكْرِم)، والغاية من هذا بيان أنّ كرمه تعالى غير محدود، ولا يشاركه أو يدانيه أحد فيه، لذا كان من المناسب استخدام صيغة التفضيل في هذا المعنى، ولم تكتفِ الآية باستخدامه، بل استخدمت صورته المعرّف بأل، التي تفيد الاستغراق والإطلاق في الأفضليّة على ما سواه، فالمعروف أنّ اسم التفضيل له أربع صور في الاستخدام اللغوي، كما يتبيّن في ما يلي:

أ - أن يكون مجرداً من (أل) التعريف والإضافة، وفي هذه الحالة يؤتى بعده بحرف الجر (من)، ومجرورها المفضّل عليه، وهنا تكون الأفضليّة بين طرفين، ولا تفيد تعميم التفضيل وإطلاقه، نحو قولنا: المتنبّي أعظم من البحريّ شعراً.

التأكيد ونغمته إيقاظاً له للالتفات إلى مضمون الكلام، وهذا فيه تأثير أعمق في النفس.

يُلاحَظُ أيضاً أنَّ هذه الآية استخدمت صيغة المضارع في الفعل (يطغى)، بدلاً من الماضي؛ لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار، وهذا يعني استمرار طبع الطغيان والجحود بنعمة الله عند الإنسان، وتجدد ذلك في سلوكه، لذا استخدمت الآية مؤكدين في الخطاب الموجّه مواءمة وانسجاماً مع هذا المعنى، كما أشير إلى ذلك.

آية (7) : "أن رآه استغنى"

تبيّن هذه الآية السبب الرئيس وراء طغيان الإنسان، وإعراضه عن ذكر الله، وهو الغني المادي بالمال وما يجري مجراه من متاع الدنيا، إذ يزرع ذلك في نفسه الكبر والغرور، وتأمّل عزيزي القارئ انسجام مضمون هذه الآية مع الآية التي سبقتها، والآية التي تلتها.

يُلاحَظُ في هذه الآية أنّه استخدم صيغة (استفعل) في الفعل (استغنى)، وهي تفيد الصيرورة فتدلّ بذلك على أنّ غنى الإنسان طارئٌ مُحدثٌ، هيأه الله تعالى له، ولولا ذلك لما صار الإنسان غنياً، ولنا في قصة قارون عبرة في هذا الشأن.

الفعل (رأى) في هذه الآية فعل قلبيّ، وليس بصريّ، لذا فإنّه ينصب مفعولين، المفعول به الأول هو ضمير الهاء، والثاني الجملة الفعلية (استغنى)، و يُلاحَظُ أيضاً أنّ الآية استخدمت ضمير الغائب؛ لتدلّ على أيّ إنسان يتّصف بهذا الخلق المذموم، فلا تخصّ أحداً بعينه.

آية (8) : "إنّ إلى ربك الرجعى"

الرجعى: الرجوع، وهي مصدر كالبُشرى، استخدمتها الآية هنا بدلاً من المصدر الشائع القياسي

الله الإنسان ما علمه): لأنّ الزيادة جعلت الفعل متعلّياً إلى مفعولين.

يُلاحَظُ أنّ الفعل (يعلم) الذي فاعله ضمير مستتر يعود على الإنسان كنوعٍ وليس كفرد، جاء في صيغة المضارع، وليس الماضي؛ للدلالة على الاستمرارية، فكّل ما يتعلمه الإنسان في العاجل أو الآجل أو الآجل البعيد، كلّه بتعليم الله تعالى، ويُلاحَظُ أيضاً أنّ هذا الفعل (يعلم) حذف مفعوله؛ لإدراك السامع به ولو لم يكن مذكوراً، وأيضاً لأنّ ما علّمه الله للإنسان غير قابل للحصر والعدّ، وجاء هذا الفعل أيضاً منفياً بحرف الجزم (لم)؛ للدلالة على أنّ الله تعالى علّم الإنسان ما لم يكن في قدرته تعلّمه واكتسابه.

وفي هذه الآية تُعرَبُ (ما) اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به ثانٍ، واستخدام (ما) فيه لطيفة بيانية ونكتة بلاغية؛ لأنّها تدلّ على العموم، على العكس من الاسم الموصول (الذي أو التي)، اللذين يدلان على الخصوص، وهذا ينسجم مع مضمون الآية، فما علّمه الله تعالى للإنسان ويُعلّمه، لا يُعدّ ولا يُحصّر، لذا كان استخدام الاسم الموصول منسجماً مع هذا المعنى.

آية (6) : "كلا إنّ الإنسان ليطغى"

كلا: حرف للردع والزجر، وفي الآية هي ردعٌ لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه، يُلاحَظُ أنّ هذه الآية استخدمت مؤكدين من أدوات التأكيد، (إنّ) واللام المزحلقة في (ليطغى)، يسمّى هذا النوع من الجمل التي تحتوي على مؤكدين فأكثر (الخبر الإنكاري)، يُستخدَمُ حينما يكون السامع (المتلقّي) في غفلة أو على عدم يقين بمضمون الكلام، فيكون

سخرية وتهكُّم وتقريع من قبح الفعل الذي اقترفه أبو جهل، على نحو يبعث الاشمئزاز والنفور في النفس.

آية (11)، (12): "أرأيت إن كان على الهدى" أو أمر بالتقوى

حُذِفَ جواب الاستفهام أيضاً في هذه الآية لعلم السامع به وتقصد الآية الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- إذ كان على استقامة وسداد في صلاته لرَبِّه، أو أمر بالتقوى. استخدمت الآية الأفعال بصيغة الماضي، لتدلَّ على تحقُّق الفعل وتأكيد حدوثه.

آية (13): "أرأيت إن كذَّب وتولَّى"

حُذِفَ الجواب أيضاً في هذه الآية لعلم السامع به، وتعني الآية أبا جهل، والاستفهام هنا يحمل نبرة السخرية والتهكُّم والاستنكار للفعل الآثم والقبيح الذي كان يقوم به أبو جهل، ويُلاحَظُ أنَّ الفعل (كذَّبَ، تولَّى) في الآية مزيد، والزيادة فيه تفيد الكثرة والمبالغة، دلالة على إصرار المذكور على الكفر والطغيان.

آية (14): "ألم يعلم بأنَّ الله يرى"

الاستفهام فيه تعجُّب؛ أي تعجُّب من أبي جهل الذي كذَّب وتولَّى، كيف لا يعلم ولا يدرك أنَّ الله تعالى يراه، والاستفهام فيه أيضاً تهديد؛ لأنَّ الله تعالى يرى كلَّ شيء، فالكافر والمشرِك والعاصي لو يعلم كلَّ منهم هذه الحقيقة، ويدركها، ويتدبرها لما أقدم على تصرفاته الخاطئة، أو استمرَّ عليها.

ويُلاحَظُ في هذه الآية أنَّها استخدمت التوكيد (أنَّ)، وأيضاً حرف الجر (الباء) يمكن عدُّه حرفاً زائداً يفيد التوكيد، والغاية من هذا أنَّ المتلقِّي (القارئ أو السامع) قد يكون في غفلة عن مضمون الآية، ويُلاحَظُ أيضاً أنَّ الفعل (يرى) جاء في الزمن المضارع، للدلالة على الاستمراريَّة والديمومة الأبدية.

(الرجوع)؛ لأنَّ المقصود بها رجعة محدَّدة، التي تكون إلى الله تعالى.

يُلاحَظُ في هذه الآية أنَّه استخدم التوكيد (إنَّ)؛ لأنَّ المتلقِّي قد يكون في غفلة عن المضمون الذي حملته الآية، وفيها أيضاً قدَّم خبر إنَّ شبه الجملة (إلى ربِّك) على اسمها الرُّجعي؛ للفت انتباه المخاطبين إلى الحقيقة التي يغفل عنها البشر، وهي الرجوع إلى الله تعالى مهما طال بهم العمر، ثمة سبب آخر لتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (الملك: 29) فأخَّر الجار والمجرور في الإيمان وقدمهما في التوكُّل لأنَّ المؤمن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله.

آية (9): "أرأيت الذي ينهى"

في هذه الآية سؤال حُذِفَ جوابه لعلم السامع به، نزلت هذه الآية في أبي جهل، عندما أراد أن يمنع سيدنا محمداً -صلى الله عليه وسلم- من العبادة والصلاة لله تعالى.

آية (10): "عبداً إذا صلَّى"

إعراب (عبداً) مفعول به منصوب للفعل (ينهى)، ويُلاحَظُ أنَّها جاءت نكرة، لكنَّها حُصِّتْ (إذا صلَّى)، فدلتَّ بذلك على الغطرسة والطغيان والكفر الذي بلغه أبو جهل، إذ وصل به العصيان والإعراض عن طريق الهداية أن ينهى عن الصلاة والتقرب إلى الله المرء الذي يراه يصلي، ولاحظ انسجام مضمون الآيات (6) و (7) و (8)، مع سبب نزول هذه الآية، إذ حذرت تلك الآيات من الطغيان والكفر، ونهت الإنسان إلى أن رجوعه ومصيره إلى الله تعالى، ثم جاءت الآية (10) بأسلوب الاستفهام المعلوم جوابه، لتمثِّل للمسلم القارئ مثالا على الإنسان المتماذي في الغي والطغيان، وهو أبو جهل الذي ينهى المرء عن الصلاة إذا رآه، وفي هذا النظم والترتيب للآيات

حاملاً نبرة تهديد ووعيد لهذا الكافر العاصي؛ أي ادعُ ناديك وسترى العاقبة الوخيمة على غرورك وكفرك. (سندعُ) استخدمت الآية في هذا الفعل حرف الاستقبال (س)، بدلاً من (سوف)؛ لأنها تفيد المستقبل القريب، وفي هذا دلالة على قرب العناية الإلهية بالرسول الكريم، ورفع الخوف والشك من نفسه في حال تعرّض لمكروه من أبي جهل، فإنَّ الله تعالى لن يمهل ذلك الكافر المشرك في إنزال العقاب به، لذا كان استخدام الحرف (س) أنسب من (سوف) في الآية الكريمة.

ويلاحظُ أيضاً أنَّ الفعل (سندعُ) حُذِفَت الواو من آخره، على الرغم من أنه غير مجزوم، لكنَّ حذف الواو هنا كان بسبب قراءة الوصل، أي إنَّه حذف لغاية صوتية تتعلّق بالقراءة، وليس لسبب نحويّ.

الزبانية: مأخوذة من الزين، وهو الدفع، وتعني في الآية الملائكة التي تدفع المشركين والكافرين إلى النار، وقيل إنَّها جمع لا واحد له، والباحث مع هذا الرأي؛ لأنها تُطلق على جمع الملائكة الذين يقومون بفعل الزين.

آية (19) : "كلا لا تطعه واسجد واقترب"

استمرت الآيات في الزجر عن الفعل الخاطئ، وبعد أن عرضت قصة أبي جهل مع النبي الكريم - صلى الله عليه وسلّم- اختتمت الآيات خطابها للنبيّ بنهيه عن طاعة أبي جهل والاستجابة له، بعد أن طمأنت الرسول على سوء العاقبة التي سيتعرّض لها ذلك الكافر إن استمرَّ على غيِّه، لذا أمرت الرسول بالسجود والاقتراب لله تعالى، واختارت السجود؛ لأنَّ العبد أقرب ما يكون إلى ربِّه وهو ساجد.

التحليل الصوتي لآيات السورة:

شهدت الدراسات المتعلقة بالصوت في العقود الأخيرة تطوُّراً كبيراً عند الغرب والعرب على

آية (15) ، (16) : "كلا، لئن لم ينته لنسفعا بالناصية" "ناصية كاذبة خاطئة"

كلا سبق أن ذكّر أنّها للردع والزجر، (لئن) اللام موثقة للقسم، أي في الآية قسم مقدّر، و(لنسفعا) وقعت جواباً لهذا القسم مقدّر، الناصية هي شعرمقدمة الرأس: (الأولى) عرفتها وحددتها الآية؛ لأنها التي تتعرّض للسّفْع، وهو القبض على الشيء، وجذبه بشدّه، والمقصود بها هنا ناصية أبي جهل، أمّا (ناصية) الثانية، فأعرابها بدل من الناصية (الأولى)، وجاءت في الآية الكريمة نكرة؛ لأنها غير محدّدة على وجه التعريف، لكنّها خُصِّت بالوصف، فكلّ ناصية كاذبة خاطئة تتعرّض للسّفْع.

استخدمت الآية في الفعل (لنسفعا) مؤكدين (لام الابتداء ونون التوكيد الخفيفة)؛ للتأكيد على حتمية وقوع هذا الجزاء بالكافر المشرك إن أقدم على اقرار المحرّمات، وتمادى في غيِّه وكفره، ومن المعلوم أنّ الفعل المضارع إذا اتّصلت به نون التوكيد يصبح مبنياً، ولأنَّ البناء عكس الإعراب الذي هو تغيير حركة آخر الكلمة، فإنَّه -أي البناء- ينسجم مع التوكيد.

نون التوكيد الخفيفة في الفعل رسمت ألفاً تمييزاً عن الثقيلة؛ لأنَّ الوقوف عليها عند البصريين بالألف، أمّا الكوفيين فيرونها نوناً في الأحوال كلّها، لذا يرسمونها نوناً.

آية (17) ، (18) : "فليدع ناديه" "سندعُ الزبانية"

النادي هو المجلس، في الآية حُذِفَ المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في (ناديه)، أصلها (أهل ناديه)، إذ كان أبو جهل قد هدّد النبيّ بأن ينادي أهل ناديه (مجلسه) إن استمرَّ النبي الكريم في فعله، وهو بفعله الشين هذا مغرور بحجم مجلسه الكبير، وكثرة أفرادها، لذا جاء الأمر في قوله تعالى: فليدعُ ناديه

كلُّ واحد منها منفرداً، لكن بضمِّها وتنسيقها معاً على نحوٍ ما، يمكن أن تتشكَّل منها لوحة فنية.

وكلِّما أُحسِنُ تجميع الألوان وترتيبها وتنسيقها، كان منها المنظر الجميل الأخاذ الذي تأنس به العين، وتلتدُّ منه النفس كلِّما أمعنت النظر فيه، وكذلك هي الأصوات كلِّما أُحسِنَ تأليفها وتركيبها، وتجانس بعضها مع بعض، كان لها الوقع الجميل في السمع، والمأخذ السلس السهل في النطق، لذا كان الصوت أحدَ الأدوات اللغوية التي وظَّفها النقاد في دراساتهم النقدية والأدبية في الكشف عن مواطن الجمال في النصِّ الأدبيِّ، وإبرازها للقراء.

ولتأكيد ما سبق نجد البلاغيين العرب ينزلون الأصوات منزلة المحسوسات في الحواس الأخرى، كالطعوم في الذوق، والألوان في النظر، فهذا أبو هلال العسكري (ت1005م) تحدَّث في كتابه الصناعتين: "..... والعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح والأنف يرتاح للطيب وينفر للمتنب، والضم يلتدُّ بالحلو ويمجُّ المرَّ، والسمع يتشوقُّ للصواب الرائع ويزوي عن الجبير الهائل، واليد تنعم باللين وتتأدَّى بالخشن"⁽³⁾، ومثله القاضي عبد العزيز الجرجاني (ت392هـ) الذي قرَّر: "أنَّ الكلامَ أصوات محلُّها من الأسماع محلَّ النواظر من الأبصار"⁽⁴⁾، وأيضاً ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) الذي عدَّ الأصوات "تجري من السمع مجرى الألوان من البصر"⁽⁵⁾.

الأمر الذي يبيِّن الدور المهم الذي يحقِّقه الصوت في الحدث اللغويِّ، سواء أكتابة كانت أم نطقاً، فكُلِّما كانت الأصوات المنطوقة أو المكتوبة متجانساً بعضها مع بعض، متلائمة في لفظها والنطق بها، كان هذا أمراً مرغوباً ومطلوباً، ويزيد الكلام رونقاً وبهاءً، بما يضفي عليه من نغمٍ وإيقاعٍ تجعله كالموسيقا، ولعمرك كان هذا الشأن من الأسباب وراء

حدِّ سواء - وإن كان الغرب أسبق في الاهتمام بها في العصر الحديث - حتى شكَّلت نتيجة هذا التطوُّر فرعاً مستقلاً في العلوم اللغوية، يُعرَف بعلم الصوت أو الصوتيات، فكثرت الأبحاث المنشورة في هذا المجال، وتنوَّعت في مناهجها، فمنها ما يدرس الجانب النطقي للأصوات، وآخر يدرس الجانب السمعيِّ، وظهرت فروعٌ واختصاصات، في هذا المجال، مثل علم الأصوات العام، وعلم الأصوات اللغويَّة، وعلم الأصوات الوظيفيِّ.

وتعدَّدت اهتمامات الباحثين في الصوتيات، فهناك من يوجِّه اهتمامه في البحث والدراسة للجانب الفيزيائيِّ في تحقُّق الصوت، وآخرون يولون عنايتهم للأثر الذي يتركه الصوت في نفس السامع أو المتلقِّي، وعلاقة هذا بالدلالة، وبعض الباحثين تطرَّق لعلاقة الصوت وتداخله مع علوم اللغة الأخرى، كالنحو، والبلاغة، والعروض، الأمر الذي يكشف بجلاء أهمية علم الأصوات من جهة، وعلاقة تضافره مع العلوم الأخرى في فهم الظاهرة اللغوية، ومحاولة تحليل الأمور التي ما تزال معقَّدة ومجهولة فيها، إذ أصبحت الدراسة اللغوية - بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ - عضداً مهماً في البحوث اللغوية التاريخية والمقارنة، ودراسات فقه اللغة، وليس ثمة ما يدعو للاستغراب في هذا، فاللغة - لأي قومٍ كانت - ما هي إلا مجموعة من الأصوات المفردة المعدودة، لا تتجاوز العشرات في عددها، تخضع لجملة من القوانين والقواعد التي تحكم استعمالها وتضبطه ضمن مجتمع معيَّن أو بيئة محدَّدة، فينتج عن هذه الأصوات المعدودة عدداً لا حصر له من المفردات والتركيب والجمال، التي تشكَّل في استخدامها - نطقاً وكتابة- المظهر العمليِّ للغة، والجانب الماديِّ لها، المتحقِّق باستعمال حاسِّتي النطق والسمع، فتغدو الأصوات اللغوية بذلك كالألوان، التي يوجد

وإن كان يشترك معها في نواح متعدّدة، وهذا ما يجعل بعض الحروف تتقارب في جرسها، وبعضها يكون مختلفاً، وتوضيحاً لهذه الفكرة شبّه ابن جني الحلق والضم بالناي "فإنّ الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً كما يجري الصوت في الألف غُفلاً بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكلّ خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قُطِعَ الصوت في الحلق والضم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات مختلفة"⁽⁷⁾.

ثانياً- لأنّ الأصوات مختلفة في أجراسها، فتركيبها والتحامها ببعضها يكوّن اللفظة أو الكلمة المفردة، التي يتحقق جرسها من اجتماع أجراس أحرفها المكوّنة لها، والمنوال نفسه يجري عليه النصّ؛ فهو عبارة عن ألفاظ يتركّب بعضها مع بعض على أنظمة مخصوصة وقواعد محدّدة، وباتتلاف أجراس المفردات وفق هذه القواعد يتحقق الجرس العام للنص، أي نغمته الكلية أو موسيقاه، وكأنّه بذلك عبارة عن كلمة حروفها الكلمات والجمل، وكلما كان هناك تناسب وتلاؤم بين أجراس الكلمات، زاد ذلك في موسيقا النصّ، وجمال وقوّه في النفوس، لذا وصّى البلاغيون العرب بذلك، فنكاد لا نجد واحداً منهم لم يتحدّث عنه، ويوصّي به، ويجعله شرطاً من شروط الفصاحة والبلاغة، فالجاحظ (ت255هـ) - مثلاً قال: "إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات"⁽⁸⁾ فإذا لم يكن موقع الكلمة إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان صعباً على اللسان إنشاد ذلك الشعر، وأمّا إذا توافقت الألفاظ في نظمها واتّسعت جرت على

ميل النفوس للشعر، وتفضيلها إيّاه على الفنون القولية الأخرى، ومثله الكلام المسجوع؛ فهو يتمثل في نهاياته على نحو يشبه القافية في الشعر، ممّا عدّه البلاغيون واحداً من المحسنات اللفظية، التي تضيف على الكلام رونقاً وجمالاً، بما يحقّقه من نغم وإيقاعٍ موسيقيّ في النصّ، "فالصوت إذا زُيّن بالتأليف المناسب والنظام المتّفق، كان ذلك أهزّ للنفس من مثله في غيره، وذلك لأنّ الشاعر الأول باشر اختلافه بقوة اللفظ إدراكاً من الحاسة، وأقوى استنباطاً لفائدة التأليف، وله شوق إلى الصوت بالطبع"⁽⁶⁾.

لكن قد يتساءل المرء، من أين يتأتّى النغم الموسيقيّ في النصّ؟ أو كيف يتحقق في الكلام؟ ولعمرك إنّ الإجابة عن هذا السؤال تحتاج لإيضاح مفصّل، وإطناب موضّح، لا يتّسع له هذا المقام، لكن يمكن إجماله وإيجازه في الأسباب الآتية:

أولاً- طبيعة النظام الصوتي في اللغة العربية - وفي أية لغة عموماً- فالأصوات نفسها، كلّ صوت يختلف عن الآخر؛ لأنّ له ملامح وصفات تميّزه عنه، وهذا ما يجعله له نغمة خاصّة أوجرساً معيّناً، وقد اصطلح علماء الأصوات في العصر الحديث على تسمية مجموع الملامح التمييزيّة التي تخصّ صوتاً مفرداً عن الأصوات الأخرى بالفونيم، وهذه الملامح التمييزيّة (الجرس أو الفونيم) تتأتّى للصوت، من مكان خروجه وكيفية نطقه، فاختلف مكان خروج الصوت، وكيفية حدوثه هي السبب وراء اختلاف جرس كلّ حرف أو صوت، وتميّزه عن الآخر، فالصوت ينتج - كما هو معلوم - من خلال قزح الهواء على أحد أجزاء جهاز النطق، وحسب طبيعة هذا الجزء المقروء وقوة القرع وامتدادها حتى خروج الصوت إلى السمع، يكتسب الصوت صفته وجرسه الذي يميّزه عن غيره من أجراس الحروف الأخرى،

1 - بدء نزول الوحي على سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - وتكليفه بحمل الرسالة، في الآيات الكريمة.

2 - تحذير الإنسان من الكفر بنعمة الله تعالى، والطغيان في الكفر، في الآيات الكريمة.

3 - الحديث عن المشرك أبي جهل عندما نهى النبي الكريم عن الصلاة والعبادة لله تعالى، وهدّده وتوعّده، في الآيات الكريمة.

يُلاحَظُ أنّ الآيات في كل موضوع كان لها نظام معيّن ونمط خاصّ في توالي الأصوات وتركيبها، تختلف به عن آيات الموضوع الآخر، مثلاً نجد الآيات في الجزء الأول من السورة سيطرت عليها المقاطع الصوتية القصيرة والمغلقة، باستثناء المقطع (ذي) في (الذي)، وهو مقطع طويل مفتوح، ومثله المقطع (سا) في (الإنسان)، والمقطع (ما) في (ما لا يعلم)، وكثرة المقاطع القصيرة والمغلقة في هذا الجزء، تتناسب مع مضمون الآيات التي تأمر بالقراءة والتدبّر في ما أنزله الله تعالى وخلقّه.

أمّا الجزء الثاني من السورة فنلاحظ فيه سيطرة المقاطع الصوتية الطويلة والمفتوحة، مثل: (لا)، (سا)، (غى)، (نى)، (عى)، وهذا يتناسب مع مضمون الآيات التي تحذّر الإنسان وتنبّه من الكفر والطغيان، فاستخدام المقاطع الطويلة والمفتوحة فيه إيقاظ وتنبيه للإنسان، ونحن لو تأملنا استخدامنا اللغويّ في بعض مواقف الحياة، تجدنا نلجأ للتطويل في النطق إذا أردنا من المخاطب الانتباه والالتفات، لا سيّما إن كان متغافلاً عنّا.

وعند إعمال الفكر في قوله تعالى: "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرجعى" وتأمّل الفاصلة القرآنية لهذه الآية (الرجعى) يُلاحَظُ أن جرسها، لا سيّما مع المقطع الطويل المفتوح في نهايتها (عى)، يدلُّ على الرجعة الطويلة إلى الله تعالى، وأنّ الإنسان مهما طال عمره، لا بُدَّ أن

اللسان كما يجري الدهان"⁽⁹⁾، وعلى نَهْجِهِ سارَ من تبعه من علماء البلاغة، ووصل الأمر عند الرّمانيّ (ت384هـ) أن عدّ تلاؤم الحروف والكلمات بعضها مع بعض وجهاً من وجوه الإعجاز البيانيّ للقرآن الكريم.

ثالثاً - لا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ معنى الكلام له علاقة وتأثير في نغمته وموسيقاه؛ فجملة الأمر لها نغمة مختلفة عن الجملة الإخباريّة، ومثل ذلك جملة الاستفهام، أو التعجّب، أو القسَم، أو الشرط، كلُّ واحدة لها نغمة خاصة، الأمر الذي يشيع تنوعاً وتلويناً صوتياً في النصّ، وهو ما اصطُلِحَ على تسميته بالتنغيم أو موسيقا النصّ، وهو موضوع على قدر من الأهميّة في كيفية الإلقاء والخطابة.

بعد هذا العرض الموجز - وعسى أن يكون موفقاً- تنسّى الآن المحاولة في تحليل آيات سورة العلق الكريمة، تحليلاً صوتياً يكشف عن دقّة التعبير البيانيّ فيها وجماله، وارتباطه وأثره في الدلالة.

وفي البدء لا بُدَّ من أن نشير إلى ما أشار إليه الرّمانيّ في حديثه عن الإعجاز البيانيّ والبلاغيّ للقرآن الكريم، وهو التلاؤم، فسمة التلاؤم الصوتي في أي القرآن الكريم واضحة جليّة، يلمحها القارئ والسامع عند تلاوته الآيات، فلا يوجد تنافرٌ بين الكلمات، ولا بين حروف كلّ واحدة منها، ولا يظهر للقارئ أو السامع كلمة ينبو عنها السمع، أو يستثقلها النطق، وهذا التلاؤم يتحقّق عندما تكون حروف الكلمة غير متقاربة في مخارجها، وليست متباعدة كثيراً، فالآيات جميعها في السُورِ كلّها تسير على منوال سلس ناعم، يلتدُّ اللسان عند النطق بها، وتتنعّم الأذن وتألّف عند استماعها، وهذه السّمّة -لعمرى- واضحة جليّة في آيات سورة العلق بما لا يدعُ مجالاً للشكّ.

عند تأمّل سورة العلق، نجد آياتها تتوزّع على ثلاثة موضوعات أو أجزاء:

على الكلام من تلاؤم وانسجام، وإيقاع تهتُّر له النفس، وتتنعم به الأذن.

عَوْدًا إلى تلاؤم الحروف ضمن الكلمة الواحدة، الذي من شأنه أن يحقق تلاؤم الكلمات مع بعضها ضمن التراكيب والجمل في النص، وهي الفكرة التي التفت إليها الرُّمَّاني (ت384هـ) - كما أُشير إلى هذا سابقًا - وعدّها من مظاهر الإعجاز البياني لآي القرآن الكريم، وبعد الرُّمَّاني جاء ابن سنان الخفاجي (ت466هـ)، الذي تناول ما قاله الرُّمَّاني، وتوسّع فيه، ووضع ما يشبه النظرية في فصاحة الألفاظ، وجعل لذلك شروطًا، أول هذه الشروط أن تكون الكلمة مؤلّفة من حروف متباعدة المخرج، الأمر الذي يجعل لها جرسًا موسيقيًا، سهلًا في النطق، وجميلاً على السمع⁽¹⁰⁾، وهو بهذا فسّر التلاؤم الموجود في الألفاظ، وأوضح ما يظهر فيه هذا التلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم.

ومن الجدير بالذكر أنّ فكرة التلاؤم بين حروف اللفظة الناجم عن تأليفها من أصوات متباعدة، لم يقتصر الاهتمام بها عند البلاغيين، فقد التفت إليها النحاة أيضًا، فهذا ابن جني يطرح في كتابه سرّ صناعة الإعراب الفكرة ذاتها التي قال بها ابن سنان الخفاجي، إذ قال: "التأليف ثلاثة أضرب: أحدهما - تأليف الحروف المتباعدة وهو أحسنه وهو الأغلب في كلام العرب.

الثاني - تأليف الحروف المتقاربة لضعف الحرف نفسه، وهو يلي الأول في الحُسن.

الثالث - تأليف الحروف المتقاربة لدرجة أكثر من النوع الثاني، فإمّا رُفِضَ أو قَلَّ استعماله، وإنّما كان أقلّ من المتماثلين، وإن كان فيهما ما في المتقاربين وزيادة؛ لأنّ المتماثلين يَخْفَان بالإدغام"⁽¹¹⁾.

يلقى مصيره بالعودة إلى الله والحساب بين يديه جلّ وعلا.

أمّا الجزء الأخير من السورة فقد جاءت فيه المقاطع الصوتية القصيرة نحو (أ)، (ز)، (أَيُّ)، (تَلْ)، (ل) والطويلة (ذا)، (لى)، (وى)، (رى)، والمغلقة نحو: (دَأْ)، (تَقْ)، (طِغْ)، (اس)، (جد)، (رب)، والمفتوحة نحو: (ذى)، (هى)، (دى) وهذا فيه تناسب ومواءمة مع مضمون الآيات التي تحدّثت عن المشرك الضالّ أبي جهل، وقصته عندما حاول منع النبيّ الكريم من الصلاة والعبادة لله تعالى، ويُلاحَظ في هذا الجزء التلوين الصوتي الذي اتّسمت به الآيات، وهذا ناجم عن الأساليب الإنشائية فيها، وكلُّ واحد منها له نغمة أو نبرة خاصّة، مثلاً (كلا) نجد فيها نبرة الزجر والردع واضحة جليّة، وهذا فيه ترهيب للسامع من الكفر والطغيان، والاستفهام في قوله تعالى: "أرأيت الذي ينهى"، و"أرأيت إن كان على الهدى" نجد فيه نبرة التعجّب والاستغراب، وهذا من شأنه أن يبعث في النفس رفضاً ونفوراً واستنكاراً للفعل الآثم الذي أقدم عليه أبو جهل، وأيضاً الاستفهام في قوله تعالى: "ألم يعلم بأنّ الله يرى" فيه نبرة تهديد ووعيد، الأمر الذي يبعث في النفس رهبة وخشية منه جلّ وعلا، ويُلاحَظ أيضاً أنّ آيات السورة اختُتِمَت بالنهي والأمر (لا تطعه واسجد واقترب) وهذا في حدّث على الالتزام بالطاعة والعبادة، والمواظبة عليها.

هذا التلوين الصوتي الذي يبدو واضحاً في آيات السورة، لا سيّما في الجزء الأخير منها، يُمثّل نموذجاً رائعاً على ما يسمّى التنغيم في اللغة العربية، أو موسيقا النص، وهو - لا شكّ في هذا - يتضافر مع المعنى والدلالة، ويزيد في الإيحاء، ويستحثّ الذهن على الالتفات والانتباه، فضلاً عمّا يضيفه

استعلائه⁽¹²⁾، وانتهاء الآية بالقلقلة فيه انسجام مع فعل الأمر بالقراءة، وكأنَّ القلقله فيها حثُّ إضافيٍّ وتشديد على ضرورة القيام بالفعل، والاستجابة للأمر، ومثل ذلك أيضًا، القلقله في نهاية الآية الثانية، في كلمة (علق)، فيها دفعٌ وتحفيز على التأمل والتدبر.

ولو تأملنا أيضًا نهاية الآية الثالثة، والرابعة، والخامسة نجدها تنتهي بحرف الميم، وهو حرف شفوي، عند النطق به تُقْفَلُ الشفتان، والآيات تتضمن حقائق في الوجود لا مجال للشكِّ فيها، والجدال حولها، لذا فإنَّ نهايتها بحرف الميم يقفل النقاش والجدال حولها.

وشبيهه بهذا أيضًا نهاية السورة، فقد انتهت بحرف الباء، بعد أن أمر الله تعالى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلّم- بالسجود والتقرب إليه، بعد ما جرى بينه وبين المشرك أبي جهل، ولاحظ أنَّ نهاية السورة بما أمر الله تعالى انسجم معه حرف الباء الشفوي، الذي تقفل الفم عند النطق به، لذا كان قفلاً للسورة، وقفلاً لما جرى بين النبي وأبي جهل، بألا يطيعه، ويستمر في التقرب والسجود لله تعالى.

خاتمة:

وفي نهاية البحث يمكن الخلوص للنتائج الآتية:
1 - أدَّى تنوُّع المقاطع الصوتية دورًا حاسمًا في انسجام النصِّ وبيان مكنوناته، فقد سيطرت المقاطع الصوتية القصيرة المغلقة على الجزء الأول من السورة، للتحفيز على القراءة والتدبر في المعاني القرآنية للوصول إلى ما وراء النص كما سيطرت كذلك المقاطع الطويلة المفتوحة على الجزء الثاني من السورة؛ لشدِّ الانتباه إلى ما في النص من أمور تستدعي تركيز وسيطرة المقاطع الصوتية القصيرة

ولو تناولنا ألفاظ سورة العلق الكريمة، وتأمّلنا تأليف الحروف في واحدة منها، لوجدنا ما قال به ابن سنان وابن جني واضحًا جليًا، انظر لأول كلمة في السورة (اقرأ)، تجدها مكونة من الهمزة، وهي حرف مخرجه من أقصى الحلق، ثم يأتي حرف القاف، ومخرجه من الحنك الأعلى أو منطقة اللهاة، ثم حرف الراء، ومخرجه من منطقة الذلق، ثم تنتهي الكلمة بحرف الهمزة، ولكنَّها هنا تختلف عمّا هي عليه في أول الكلمة، فهي في الأول مكسورة، والكسرة تخرج من منطقة الغار أو شجر الفم من الجهة السفلى، أمّا في نهاية الكلمة فجاءت مسبوقة بالفتحة، والفتحة تخرج من الجوف، وتنتهي عند سكون آخر الفعل، فتأمل أيُّها القارئ هذه الروعة في تركيب حروف الكلمة، وكيف يتضح لنا ما قال به البلغاء عن فصاحة اللفظة المفردة وجمالها.

ولو تأملنا كلمة (خلق) نجدها أيضًا مكوّنة من حروف متباعدة المخارج، فالحاء تخرج من أعلى الحلق أو أوله، واللام تخرج من الذلق، والقاف من اللهاة، وأيضًا كلمة (علق)، العين تخرج من وسط الحلق، واللام من الذلق، والقاف من اللهاة، وكلمة (يعلم)، الياء تخرج من منطقة الغار، والعين من وسط الحلق، واللام من الذلق، والميم من الشفاه، وهكذا دواليك لو تتبعنا وتأمّلنا باقي كلمات السورة الكريمة.

بقي أن نشير إلى انسجام جرس الحرف أو صفته مع الدلالة، وأثر ذلك في الإيحاء بالمعنى، فالآية الأولى في السورة تأمر بقراءة ما خلق الله تعالى وأنزل، ولاحظ أنَّ الآية انتهت بحرف القاف، ومعروف أنَّه من حروف القلقله، والقلقله صوت يشبه النبرة يظهر في حال تسكين الحرف أو الوقوف عليه، والقاف هي أصل حروف القلقله؛ لأنَّه لا يُقدَّر أن يؤتى به ساكنًا إلا مع صوت زائد لشدة

- محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة، الطبعة الثالثة، 1951، ص412.
- 5 - الخفاجي، ابن سنان، سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، ط1969، ص54.
- 6 - شرح الموسيقى من كتابي الشفاء والنجاة لابن سينا، تحقيق وشرح غطّاس عبد الملك خشبة، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، الطبعة الأولى 2004، المقدمة ص24.
- 7 - ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي: سر صناعة الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وإبراهيم مصطفى وعبد الله الأمين، دار إحياء التراث القديم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1 1954، ج1 ص9.
- 8 - هم الأخوة من أب واحد، وأمّهات شتّى، لذا يحدث التنافر بينهم.
- 9 - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني 1968، ج1، ص49-ص50.
- 10 - انظر: الخفاجي، ابن سنان، سرّ الفصاحة ص ص52-98
- 11 - ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي، سر صناعة الإعراب، ج1، ص ص75-77.
- 12 - ابن الجزري، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي: النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد أحمد دهمان، طبعة عام 1926، ص203.

مصادر الدراسة ومراجعها:

- 1 - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق فوزي خليل عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، 1968.
- 2 - الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق د.محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989.
- 3 - الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة، 1951.

المفتوحة على الجزء الأخير من السورة؛ لما في ذلك من انسجام مع موضوع الآيات في ذلك الجزء.

2 - جاء اختيار الأصوات في الكلمة الواحدة ملائماً للمعاني القرآنية، كما جاءت حركات أعضاء النطق مؤدّية لمعانٍ منسجمة مع موضوع الآيات. فحركة أعضاء النطق في نهاية التلقّف بالميم والباء تنسجم مع معنى إغلاق الحديث والنقاش حول موضوع الآيات التي وردت فيها هذه الأصوات.

3 - جاء الحذف في الآيات على عدة مستويات: مستوى الاسم، ومستوى الفعل، ومستوى الحرف، ومستوى الجملة. وقد تكررت في خمسة مواضع، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلُّ على تمكُّن النص من ذاته لينتقل إلى تمكنه من إفهام القارئ المتدبّر مع وجود حذفٍ معبّرٍ عنه بما يحيط به من معاني وألفاظ تغني عن ذكره.

الهوامش والإحالات:

- 1 - الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق د. محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة 1989م، ص81 - ص82.
- 2 - الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص146
- 3 - العسكري، أبو هلال، الصناعتين، تحقيق علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة صديق موسى، الطبعة الأولى، 1952، ص57
- 4 - الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي

- 4 - ابن الجزري، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد
الدمشقي: النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد أحمد
دهمان، طبعة عام 1926.
- 5 - ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي: سرّ صناعة
الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة مصطفى السقا ومحمد
الزفزاف وإبراهيم مصطفى وعبد الله الأمين، دار إحياء التراث
القديم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1954.
- 6 - الخفاجي، ابن سنان: سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح
عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، طبعة
عام 1969.
- 7 - الرماني، علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن،
تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف،
مصر، الطبعة الثانية، 1968.
- 8 - زرقة، أحمد: أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر
والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 1993.
- 9 - الزمخشري، محمود بن عمر: الكشّاف عن حقائق
غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار
الرايات للتراث، القاهرة، 1987.
- 10 - ابن سينا، الحسين بن عبد الله: شرح الموسيقى من
كتابي الشفاء والنجاة لابن سينا، تحقيق وشرح غطاس
عبد الملك خشبة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة
الأولى، 2004.
- 11 - الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير
القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1983.
- 12 - العسكري، أبو هلال: الصناعتين، تحقيق علي محمد
بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة صديق موسى،
الطبعة الأولى، 1952.
- 13 - ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم،
المكتبة التجارية في القاهرة، طبعة 1937.
- 14 - النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد: إعراب القرآن
الكريم، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، طبعة 1977.